العنكبوت! العنكبوت! العنكبوت!

زهيرة البيلى

هناك أناس يعيشون على هامش الحياة فلا نرى وجوههم أبدا . ولانعرف حتى أسماءهم الحقيقية . فهم محرومون من الحياة الأسرية : الزوجة والأطفال والاستقرار والهدوء . . يقيمون فى الفنادق يوما هنا ويوما هناك . أصدقاؤهم بالصدفة فهم لايصادقون سوى عملهم .

وهم غالبا ما يحملون سلاحا . . طباعهم مختلفة . فبعضهم هادئ وحذر . والبعض الآخر معروف بالعنف . . ويشكو معظمهم من آلام فى الأسنان والمعدة . وفى أنحاء العالم قد يكون لهم بعض الأقارب . . ربما أم . أو أب . أو أخت .

وهؤلاء تنتهى حياتهم الروتينية الغريبة فى صورة تقارير لدى البوليس المحلى . ثم الانتربول . . وهى التى تتحول إلى بطاقات زرقاء أو خضراء أو تحمل علامة حمراء .

فى أحد مكاتب الانتربول بباريس . فى عام ١٩٥٦ . اهتم رئيس قسم مكافحة التهريب بدراسة ملف جديد خاص بالمنطقة الثالثة : تركيا . فقد تضاعفت البرقيات من « انقره » بحث بها رئيس الباحث « كامل » الذى يقود بنفسه حملة واسعة للقبض على عصابة خطيرة منظمة تبيع وتوزع كميات كبيرة من المورفين . ويبدو أن الشبكة تتكون من مجرمين من أصحاب السوابق من لبنان وسوريا وفرنسا . فيقومون بتوزيع المورفين الذى يتحول فيما بعد إلى هيروين . ومن تركيا يشحن رأسا إلى الولايات المتحدة .

ومن طريق خيوط عنكبوت متشعبة بعضها مسجل فى ملفات لدى الانتربول . ظهرت اخيرا فى انقرة واحدة من اخرع هذا العنكبوت فقد بعث الانتربول برقية يطلب معلومات عاجلة عن شاب يقيم فى « أزمير » فى الخامسة والعشرين من عمره وكانت ملفات الانتربول قد ضمت تفاصيل عن مجموعة من المشوهين كبار التجار وموزعى المورفين فى سوريا . وهذا الشاب الذى يقيم فى « ازمير » كان قد سبق أن اطلق سراحه لعدم توافر الأدلة ضده .

ولكن « انقره » امسكت بهذا الخيط . فلابد أن هذا الموزع الشاب احدى اذرع العنكبوت الكبير وانه يجب عدم القاء القبض عليه . فالأفضل أن يبقى الخيط متصلا حتى يتوصل البوليس الى العنكبوت نفسه . والذى يمتد إلى فرنسا والولايات المتحدة وتركيا .

وبقيت البرقية على مكتب رئيس الانتربول « بأنقره » ومعها صورتا لأخطر اللذين من المهربين . وأخذ الخبير يتأملها بدقة حيث كان على موعد مع المهرب فى اليوم التالى ولم يكن أمامه متسع من الوقت لجمع المعلومات أو عمل التحريات اللازمة عن المهرب ومساعده المهم انتحل الخبير شخصية مشرد عرفى واستطاع أن يقنع المهرب الشاب بشخصيته حتى انه هو الذى قام بتحديد الموعد ومكان اللقاء . فادعى الخبير أنه يريد شراء كمية من المورفين .

وفى انتظار رد التاجر الكبير دبر رئيس الباحث خطة محكمة أوكمينا بتمكن من خلاله من القبض على عصابة المهربين .

لقد طلب الخبير ٣٠ كيلو جراما من المورفين دفعة واحدة . وهى كمية لايمكن أن يتم تسليمها وسط المدينة . ولذلك تعمد الخبر أن يتسلمها من مخزنهم أو معملهم الخاص . الذى يحولون فيه المورفين إلى هيروين . وهذا ما أراده البوليس بالضبط . فهى كمية رهيبة . تساوى حوالى ١٢٠٠٠ دولار . اى ما يعادل ٦٠٠٠٠ جنيه تركى . وكان على الخبر أن يحمل المبلغ معه فى مساء اليوم التالى فى « ازمير » والطريق طويل وشاق . وإذا تم الاتفاق مع المهرب فلن يجد الوقت للعودة إلى « انقره » من جديد .

بدا الخبر واثقا من نفسه ومن نجاحه ولكن المخاطرة مازالت مطروحة وقائمة فقد أعطى رئيس الباحث « كامل » تعليماته بتجهيز مبلغ ٦٠٠٠٠ جنيه تركى عن طريق بعض رجال الأمن فى « أستامبول » وتم الاتفاق على تفاصيل الخطة فى انتظار تحديد موعد اليوم التالى . وهو موعد الخبر والمهرب وكانت الخطة كالآتى يتوجه الخبر بمفرده وسيارته حاملا حقيبة النقود ويظل مسافة ما تتبعه سيارة أخرى بها أربعة من

الرجال الثلاثة من رجال البوليس التركى والثانى من الأخصائيين الأمريكيين . أما الهجوم فلن يحدث الا وقت تسليم البضاعة . وكانت هذه هى الخطوط العريضة للخطة لأنه لم يكن فى وسع البوليس أن يتوقع ما يمكن أن يحدث وبدأ الخبر طريقه . طريق المغامرة . التى لم تكن بدايتها بداية حسنة . فقد توقف الطيران فى المدينة بسبب سوء الأحوال الجوية . فاضطر الخبر إلى السفر بالدرجة الأولى بقطار المساء ليصل استامبول . عند الفجر وقد وصل متعبا وهو يعانى من آلام حادة بالكليتين ليلق بنفسه من شدة الإعياء فى تاكسى .

ولم يكن أمامه وقت كاف . فتوجه على الفور إلى مكتب النائب العام ليتسلم مبلغ الـ ٦٠٠٠٠ جنيه . إذ كان لابد له من الرحيل فورا بالقطار إلى « أزمير » .

حيث كان قد تحدد الموعد فى أحد المقاهى فى حوالى منتصف الليل . أما التاكسيات فى استامبول فكانت أيضا حالا من القطارات . لقد عانى الخبر حتى تحول إلى ما يشبه الزكيبة الخاوية . فقد بدأ يشعر بالجوع بعد أن قضى ليلة كاملة بدون نوم . ومع ذلك أخذ يعدو بين مكاتب البنى العام لبوليس استامبول من أجل الحصول على الـ ٦٠٠٠٠ جنيه . وكان الروتين فلا أحد يعرف حتى اسمه أوشكله وأخذ يلهبهم السادونيش فى مكتب مساعده بالضبط للآلة أمتار فى مدرين . وعياء لانظيرلهن الساعة وحتى لايفوته القطار اتجه إلى الحاجة « أزمير » وبدت عملية شدة القلق والتوتر أمام بطء الادارة وتباطئها فقد كان فى حاجة إلى عشرات من الامضاءات ليتسلم ذلك المبلغ الذى هو كمين بالنسبة للمهربين وكأنه ثروة طائلة بالنسبة للبوليس التركى . وانضم إلى الخبر أربعة من رجال البوليس وتراجم الخمسة بحقيبة النقود داخل تاكسى ومنه إلى قطار جديد فى طريقهم إلى « أزمير » .

وهذا الخبر النصف إمريكى والنصف تركى مجهول الاسم . ولكن كان عليه أن يكون فى « أزمير » . وفى نفس اليوم حيث يجلس الجميع فى فندق من الدرجة الثالثة .

ولم يذق الخبر طعم النوم ليلتين كاملتين حتى صافت معدته من تناول السندوتشات . . . .

ولأنه قد زعم أنه تاجر عرفى يعمل لحساب عملاء أمريكيين . فقد تطلب منه هذا بعض التحول أو التغير فى شكله . خاصة فى الزى الذى يرتديه . والساعة الذهبية التى يتحلى بها . أما الفهى الذى يلتقون فيه فيقع فى مكان معزل فى السوق الممتدة بطول الميناء . حيث لاتنقطع الحياة ليلا أو نهارا . فيبعون ويشترون أى شئ وبأية أسعار وبلا رقابة أو رقيب . فلماذا لايبيعون المورفين ؟ وبالذات شحنة تبلغ ٣٠ كيلو جراما دفعة واحدة .

انتظر الشاب الذى يعتبر مجرد حيط من خيوط العنكبوت أو حلقة الاتصال بين التاجر والمشترى وكان بصحبته هذه المرة فرقة صين . وبنظرة واحدة من الخبير استطاع أن يتعرف بنفسه على التاجر الذى رأى صورته فى مكاتب الانتربول بباريس . وكان التاجر من ذلك النوع الذى تشع منه رائحة الخيانة وهو على بعد كيلو مترات . وكل شئ بالنسبة له كما توقعه : العينان ضيقتان والفم غائر والعنق لا وجود له واليدان ضخمتان وصوته لا يعرف الا الأوامر .

وبعد أن تبادل الرجلان بضع كلمات مختصرة . اتفقا على موعد اللقاء الذى تحدد فى الساعة السادسة صباحا من اليوم التالى . وأن يتم حلف قلعة قديمة . حيث يسلكان طريقا جبليا طويلا وكان الاتفاق . ولكن الطريق إلى الجبل ممنوع . وبعيد عن أية رقابة . ومن السهل رصد أية سيارة فيه . فاستأذنهم الخبير فى أن يرافقه حارس يمتطى إلى جانبه . خاصة لأنه يحمل الـ ٦٠٠٠٠ جنيه . ووافق المهربون . ولكن المخاطرة ظلت قائمة . . .

إذ كيف يتخلص من العصابة ؟ وكيف يضع يده على ٣٠ كيلو جراما من المورفين دون أن يخسر مليما واحدا ؟ وكيف يخرج سليما بعد أن يكتشف مكان المخزن أو المعمل السرى ؟

وفى الساعة السادسة صباحا . وحلف القلعة القديمة . يوم ٢١ نوفمبر عام ١٩٥٥ . كان الجو رماديا مليئا بالضباب . التقى الخبير وحارسه بالتاجر ومساعده اللذين نظرا للمشترين بريبة وحذر . وكما يحدث دائما فى مثل هذه العمليات . حيث يسود الشك . . .

وقد ساورهم القلق من هذا المرافق الجديد .

ولكن الخبير أكد أن الحارس محل ثقته وللتأكيد طلب منه أن يريهم النقود . ففتح الخارس الخلية وكأنما أعطاها بسرعة بعد أن لمعت عينا التاجر أمام الأوراق المالية المكدسة .

وكما كان متوقعا لم يعد للشك مكان . وركب الرجال الأربعة داخل سيارة المخبر وهى السيارة الخضراء التى خرجت توا من جراج بوليس « أزمير » . وهى خضراء بالذات حتى يسهل رصدها وسط الجبال . كما أن هذا اللون الأخضر يبعث على الأمل والتفاؤل . وطيلة الطريق خيم صمت كامل . . وبعد أن تركوا الطريق الرئيسى المعهد . انعطفت السيارة فى طريق جبلى وتحركت فيه بصعوبة فلم تزد سرعتها على عشرين كيلو مترا فى الساعة .

ومن بعيد بدأ الخليج يختفى . وصعد الطريق وسط قرى حاملة وصخور هلالية الشكل ومدافع أثرية تبدو وسط التلال الطينية . ومرت ساعات لم يفتح خلالها الموزع فيه بكلمة واحدة الا ليرشد السائق أو الحارس إلى الطريق . فأحرقت السيارة أرضا جيرية ناصعة البياض . تناثرت وسطها بعض المنازل المبنية من الطوب الجاف .

وجاء المساء . والطريق لا ينتهى وسط الصمت الكامل والخفاء العظيم حتى اقتربت الساعة من منتصف الليل . وعندها أعطى التاجر أوامره بالتوقف . وسط هذا الظلام الحالك الذى كان يلف الجميع .

اعتمد رجلا البوليس على تلك الأسلحة الخفيفة التى احتفظا بها تحت ملابسهما . وطلب المخبر من زميله أن يضع السيارة فى الاتجاه العاكس حتى تسهل عملية الشحن . لكنه فى الحقيقة وضعها فى هذا الاتجاه حتى تكون فى حالة الاستعداد عند أية ضرورة قصوى . ولم يشك التاجر فى الأمر . ونزل بنفسه ليوجه السائق . وتحت ضوء كشافات السيارة ظهر مبنى قديم لمدرسة مهجورة . استخدمت مخزنا سريا للمهربين . وبقى الحارس داخل السيارة ولم يترك عجلة القيادة . اما المخبر فاتجه مع التاجرين ناحية المبنى . وعلى عتبة الباب توقف الموزع . وبإشارة ذهب زميله ليحضر البضاعة . فاختفى الوسيط داخل المبنى . ومرت دقائق لم تفارق الابتسامة شفتى التاجر .

وفهم المخبر السبب . فقد لمح وسط الظلام أشباحا تتحرك حولهم وعلى بعد مئات الأمتار لمح نور أحمر ليرد عليه نور آخر من بعيد وسط الجبل لقد كان من الواضح أن المخزن يقع تحت حراسة مشددة من المهربين . ثم خرج المساعد وهو يحمل حقيبة كبيرة . اما التاجر فقد قال وهو مازال يبتسم : اريد النقود الآن .

وكان من حق المخبر فحص البضاعة أولا فطلب منهم التوجه للسيارة حيث النقود وأحس المخبر بشعيرة تجتاح رقبته وساقيه ويديه فى طريقه للسيارة . وخلفه الوسيط لمح فى الظلام اشباحا تتحرك التى عشر رجلا مسلحة بالسادق والمدافع الرشاشة . وبسرعة كونوا دائرة على مسافة معينة حول السيارة .

وتجمد الحارس على عجلة القيادة ولم يقو على الحراك . فمازال يحتفظ بال ٦٠،٠٠٠ جنيه . واحد المخبر مكانه على انتعد الخلق وباشر بيديه عملية فحص الموزعين بنفسه وكان رد الفعل عنده ايجابيا . فقد أومأ برأسه عن رضا . وعندئذ احتدت دائرة الرجال المسلحين تضيق حول السيارة . وظهر واحد منهم ذو لحية ومسلح بمدفع رشاش ليطالب بالمبلغ .

ظل المخبر حتى هذه اللحظة محتفظا بهدوئه . وبنظرة واحدة وزن الموقف كله . اما التاجر أو رئيس العصابة فوق على عتبة المبنى اى على بعد مائة متر تقريبا . واحد الوسيط مكانه بجانب المخبر وعلى انتعد الخلق داخل السيارة حيث باشر معه عملية فحص الموزعين . فقال المخبر فجأة . وبطريقة لا تبعث على الشك : إنه يريد تسليم النقود لرئيس العصابة نفسه . ولذلك أراد أن يتراجع بالسيارة إلى الوراء .

وجلس المخبر بجانب الوسيط على انتعد الخلق وفهم الحارس الخطة . فعليه أن يتحرك مثل البرق . ولم يشك احد فى الأمر . خاصة أن الوسيط مازال داخل السيارة . وفى لمح البصر انسحب الحارس من الموقعة مندفعا بسيارته إلى الأمام وبسرعة هائلة . فحاول الرجلان على الفور قطع طريق السيارة بينما احدثت طلقات الرصاص تدوى فى المكان . . وتعالت صرخات رئيس العصابة وسط الظلام . وصرخ الوسيط من شدة الغيظ فأمسكه المخبر بلكمة واحدة . أما الحارس فاندفع فى طريقه منحدرا بسيارته . واحد المخبر يطلق الرصاص فى الهواء حتى يغطى انسحابه .

وعلى بعد حوالى كيلو مترين أو ثلاثة تخلص رجلا البوليس من الوسيط والقيا به على أول الطريق وكان ما يزال على قيد الحياة فلم يكن المخبر فى حاجة إليه . بل تعمد التخلص منه حتى تعتقد العصابة انهم من عصابة منافسة وحتى لا يظنوا انهما من رجال الأمن . . وبهذه الطريقة تكون لدى البوليس فرصة ليعد هجوما رسميا منظما ومفاجئا لهذا المخزن السرى . الذى يقع فى قرية منعزلة وسط الجبل .

وفى اليوم التالى . وفى أحد مكاتب بوليس « ازمير » سلم المخبر الـ ٣٠ كيلو جراما من الموزعين ومبلغ الـ ٦٠ ألف جنيه . كما رفع الحارس المرافق تقريره الخاص عن المهمة .

وعلى الفور استقل رئيس المباحث « بأزمير » بنفسه طريقه إلى المخزن السرى فى مهمة رسمية هذه المرة للقبض على المهربين .

وفى هذا الجزء بالذات لابد أن نذكر بعض التفاصيل الهامة . الكوميدية والغبية أيضا .

حقيقة ان بوليس « ازمير » لايملك عددا كافيا من السيارات . ولكن هذا لا يعنى أن يستقل رئيس المباحث نفس السيارة الخضراء التى استخدمت فى العملية الأولى لقد قادها بنفسه على نفس الطريق للمخزن . وعلى بعد عشرة كيلو مترات تقريبا اضطر للتوقف أمام تهديدات البوليس المحلى . الذى لقى بلاغا من تاجر الموزعين يبلغهم فيه عن هروب اثنين من المهربين العرب داخل سيارة خضراء وانهما مزودان بشحنة هائلة من الموزعين . فقبض البوليس على الفور على رئيس المباحث . على أنه التاجر العربى . وبعد نقاش ممل وبعد عملية روتينية لفحص الأوراق . وأمام الإجراءات الرسمية التى استغرقت اليوم كله . كان من السهل أن يتضح أن البوليس متواطئ مع المهربين وانه يعمل لصالحهم .

لولا أن التقى رئيس المباحث بالصدفة بأحد اقاربه الذى تعرف عليه لما تمكن من الاستمرار فى مهمته . وهى مهمة كان لابد أن يحصل فيها على ٦٤ كيلو جراما من الموزعين و ٦٨٠ كيلو جراما من الأفيون . وكل المواد الكيماوية التى تستخدم فى تحويل الموزعين إلى هيروين وهذه الكمية كانت فى طريقها إلى فرنسا والولايات المتحدة وسوريا ولبنان .

إنها شبكة عملاقة أو أهم عنكبوت فى المنطقة .

المهم أنه قام بشن هجوم واسع النطاق على وكر المهربين التى خلاله القبض على سبعة منهم بينها سقط قتيل واحد وهو ابن زعيم العصابة . وكان شابا نصف مجنون فى الثامنة عشرة من عمره وكان يتعاطى المخدرات ومسلحا بمدفع رشاش وكان قد استمر صامدا فى المعركة لمدة ساعتين كاملتين ليقع فى النهاية تحت رصاص البوليس . واخيرا تخلص المخبر من ملابس التاجر العربى وكف عن صبغ شعره الأشقر ليعود ثانية رجل البوليس الأمريكى . ولكن المجهول الاسم .

ولكن المشكلة ظلت باقية . فلكى يذهب المخبر ليقدم تقريره كان عليه ركوب القطار ثم سفينة حتى استامبول . اى ٢٥ ساعة سفر احيطت كلها بسباق آخر مع التاكسيات المجنونة داخل شوارع المدينة . ليصطدم ثانية بالروتين الميت أو بعنكبوت من نوع آخر . ! ■

تصميم محمد ابراهيم